السورة الرابعة

سورة الإخلاص

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ۝٢ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝٣ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ۝٤ ﴾

هذه هي السورة الثالثة في الترتيب التراجعيّ للسور، وتشكّل مع السورتين السابقتين ثلاثيّةً دينيّةً تحتلّ في عباداتنا اليومية أكثر من مكان، وتتردّد في أكثر من مناسبة.

إنّ عدد كلمات (الإخلاص) لا يزيد عن ١٥ كلمة ولكنّ عدد المواقع الجديدة التي أدخلتها إلى معجمنا يصل إلى ٢٢.

وتستمدّ السورة مقوّماتها اللغويّة، التي تستقلّ بها عن بقيّة السوَر، من عدّة عناصر، أهمّها الألفاظ الثلاثة التي لا تتكرّر مرّةً أخرى في القرآن (أحَد، الصمد، كفُواً) وكذلك التعبيرات المتفرّدة التي تشغل في الواقع آياتها الأربع جميعاً.

أولاً: الألفاظ والمصطلحات

١- قل:

لن نعيد تفصيل ما ذكرناه عن الفعل (قل) في مطلع كلٍّ من سورتَي الناس والفلق، وحسبنا هنا التذكير بأنّ الاستعمال القرآنيّ للفعل اختلف عمّا اعتاده العرب بعدّة جوانب، وأنّ القرآن قد استحدث هذا النوع من الخطاب الذي تبدأ فيه الوحدة الأدبيّة -أي السورة بكاملها، كما هو الأمر في الحالات الثلاث- بصيغة الأمر الصادر عن غيرمحدَّدٍ والموجّه إلى غير محدَّد، واستُخدم كذلك بمعنىً جديد هو: اقرأ، أو: ردّد، وليس بمعنى: أخبِر، وموقعه يوحي بوجود شرطٍ محذوفٍ مع الفاء الرابطة لجوابه، والتقدير، إن سألوك عن الله فقل ..

ولكنّ الفعل هنا، خلافاً لوضعه في السورتين السابقتين، يمكن توجيهه أيضاً إلى مجرّد الإخبار، فكأنّه تعالى يوجّه نبيّه ﷺ إلى أن يقول ذلك للمشركين، فيكون معنى الفعل على هذا: (أخبِرْهم) وليس: (رَدِّد)، ومع ذلك لم تلحق به اللام التي اعتاد العرب إلحاقها به في هذه الحال، وإلاّ لكانت العبارة: (قل لهم).

٢- أحَد:

يرِد هذا اللفظ مرّتين في السورة، مرّةً في المطلع، وهو موضع اهتمامنا هنا، وأخرى في الختام، ولا يدخل في دائرة هذا البحث.

فاللفظ (أحَد) في تراثنا اللغوي يعني: بَشَر، أو: شخص، أو: إنسان، أو: كائن، وحاول أن تُحِلَّ أيّاً من هذه المعاني محلّ اللفظ (أحد) في الأبيات الجاهليّة الآتية، وستجد أنّ معنى اللفظ فيها لا يعدو أن يكون واحداً من المعاني المذكورة:

يأتي على الناسِ لا يأتي على أحدٍ حتى التقينا وكانت دوننا مُضرُ

أعشى باهلة (ت؟)

وقد حلفتُ يميناً لا أصالحُهم ما دام منّا ومنهمْ في المَلا أحَدُ

الحارث بن عبّاد (ت ٧٤ ق.ه)

ألا لا يجهَلَنْ أحدٌ علينا فنجهَلَ فوقَ جهلِ الجاهلينا

عمرو بن كلثوم (ت ٣٩ ق.ه)

وقفتُ فيها أُصَيلاناً أُسائلُها عَيّتْ جواباً وما بالربعِ مِن أحَدِ

النابغة الذبياني (ت ١٨ ق.ه)

فأنت تستطيع أن تُحلّ اللفظ (إنسان) محلّ اللفظ (أحَد) أينما ورد في الأبيات الأربعة، وكذلك في ختام سورة (الإخلاص) نفسها ﴿كُفُوًا أَحَدٌ﴾، ولكنّك لن تستطيع أن تفعل ذلك مع (أحَد) في الآية الأولى ﴿اللَّهُ أَحَدٌ﴾، وإلاّ كان تجديفاً. إنّ المعنى القرآنيّ لهذا اللفظ هو (واحدٌ) أو (فرْدٌ) ولا يمكن توجيهه لغير ذلك.

ولاحظ الفرق بين معناه في هذه الآية ومعناه في نهاية السورة: إنّ باستطاعتنا هناك أن نقول شارحين: ولم يكن مخلوقٌ، أو بشرٌ أو إنسانٌ أو كائنٌ، كفواً له، ولكنّ هذا غير ممكنٍ مع اللفظ في الآية الأولى. قال الأزهريّ في (معجم التهذيب): "لا يُوصف بالأَحَديّة غيرُ الله تعالى، لا يقال: رجلٌ أحدٌ، ولا: درهمٌ أحد".

وبدهيٌّ أنّ الواحد يدخل في الأحد، ولكنّ الأحد لا يدخل في الواحد. إنّ هذا يوضّح لنا تماماً خصوصيّة استعمال هذا اللفظ وقرآنيّته، حتى عُدّ اسماً من أسماء الله تعالى.

ويخلو تراثنا، قبل الإسلام وبعده، من هذا الاستعمال الخاصّ للفظ، كما يخلو منه الحديث الشريف نفسه، إلاّ أن يرِد في سياقٍ قرآنيّ، كما في الحديث القدسيّ:

– .. وأمّا شتْمُه إيّاي فقوله: اتخذ الله ولداً، وأنا الأحدُ الصمد لم أَلِد ولم أُولَد ولم يكنْ لي كُفُواً أحد[1]

(١) البخاري، **صحيح البخاري**، مرجع سابق، ج٤، ص١٩٠٣، حديث رقم: ٤٦٩٠.

ورغم ورود الكلمة في القرآن الكريم ٧٤ مرّةً فإنّ هذه السورة تنفرد وحدها بهذا المعنى الخاصّ دون بقيّة السوَر.

٣- الصمد:

هذا اللفظ من خصوصيّات السورة أيضاً، إذ يقتصر وجوده في القرآن على هذه الآية. ونعثر على اللفظ مرّةً واحدة على الأقلّ في الشعر الجاهليّ، وذلك في قول طَرَفة بن العبد (ت ٦٠ ق.هـ):

يَزَعونَ الجهلَ في مجلسِهِمْ وهمُ أنصارُ ذي الحِلْمِ الصَمَدْ

ولكنّ اللفظ يأخذ في الإسلام بُعداً جديداً، فهو الآن اسمٌ من أسماء الله تعالى يحمل من المعاني ما لم يحمله اللفظ الجاهليّ. إنّه هنا: السَنَد، والمعتمَد، والذي يُقصَد في الحاجات، والمستغني عن كلّ أحد، والمحتاج إليه كلّ أحد، والسيّد الذي كمُل سؤدُده، والدائم الباقي، بل هو في بعض التفسيرات: الذي لا يأكل ولا يشرب، أو المُصْمَت الذي لا جوف له. وفي اجتماع هذه المعاني للّفظ الواحد، ضمن السياق القرآنيّ الجديد الذي يَرِد فيه، يتّخذ اللفظ شخصيّةً متفرّدةً جديدةً لا علاقة لها باللفظ الجاهليّ.

ويخلو الحديث الشريف أيضاً من هذا اللفظ، إلاّ أن يكون في سياقٍ قرآنيّ، كما في الحديث القدسيّ السالف الذّكر.

٤- لم يكن:

هذا الاستعمال للفعل الناقص (يكن) هو من الخصوصيّات العجيبة للقرآن الكريم؛ إذ لم يشاركه في هذا الاستعمال حتى الآن نصٌّ نثريٌّ أو شعريّ، قديمٌ أو حديث، بشريٌّ أو نبويّ.

لقد تحدّثنا في الجزء الأول عن الأداة الناقصة (كان) واستعمال القرآن الكريم لها في معنىً جديدٍ لم يعرفه العرب من قبل، ولا مِن بَعد، وهو معنى الاستمراريّة والتأكيد المطلق؛ أي ما يفيد معنى (إنّ) التوكيديّة.

واستعمال (كان) في هذه الآية هو من المرّات القلائل التي خرج فيها القرآن بهذه الأداة عن صيغة الماضي إلى صيغة المضارع (٨ مرّات) وحافظ مع ذلك على معناها القرآنيّ الجديد: تأكيد النفي المطلق الذي يغطّي الأزمنة الثلاثة: إنّه لم يكن، ولا يكون، ولن يكون.

والاستعمال القرآنيّ للفعل في صيغة الماضي يعني تأكيد الإثبات المطلق. فقوله تعالى: "وكان ذلك على الله يسيراً" لا يعني أنّ الأمر كان كذلك في الماضي ولم يعد كذلك الآن -كما يعني هذا الفعل عادةً أينما وقع في لغتنا البشريّة- بل يعني الاستمراريّة: كان في الأزل، وما يزال، وسوف يستمرّ إلى الأبد.

طبعاً، الحديث في آية سورة (الإخلاص) يتّجه إلى تأكيد النفي بدلاً من تأكيد الإثبات، أي: ليس له كفواً أحد، فالنفي هنا نفيٌ لوجود المثيل أو المُشابه، في الماضي والحاضر والمستقبل معاً.

ويتوضّح الفرق بين الاستعمال القرآنيّ والاستعمال البشريّ لو قارنّا بين معنى الفعل في الآية ومعناه في أيّة جملةٍ عاديّةٍ أخرى، كمثل قولنا:

لم يكن البائع في مخزنه

فما نتحدّث عنه هنا أمرٌ وقع في الزمن الماضي، ولا علاقة له بالحاضر أو المستقبل. وهكذا في الأبيات الجاهليّة التالية:

فإنّا لم يكنْ ضبّاءُ فينا ... ولا ثَقْفٌ ولا ابنُ أبي عصامِ

أوس الهُجَيميّ (ت؟)

رميتُ به سهماً فعجّل حتفَهُ ... وذلك شيءٌ لم يكن بخِياري

الحارث بن عبّاد (ت ٧٤ ق.هـ)

ألفيتَنا للضَيفِ خيرَ عِمارةٍ ... إن لم يكنْ لَبنٌ فعطفُ المُدْمَجِ

الحارث بن حِلِّزَة (ت ٥٤ ق.هـ)

والغريب أن استخدام القرآن للفعل بهذا المعنى الجديد يتوزّع على السوَر تبعاً لنظام خاصّ، وقد سبق أن أوضحنا في الجزء الأول أنّه استُخدم في القرآن الكريم بهذا المعنى ١٩٠ مرّة، منها ٥٣ مرّةً في سورة (النساء) وحدها، رغم أنّ وجوده ينعدم تماماً فيما تبقّى من سوَر النصف الأوّل من القرآن، على حين تتوزّع بقيّة الاستعمالات على سوَر النصف الثاني منه.

ولا شكّ أنّ هذا التوزيع المنظّم للفعل على سوَر الكتاب الكريم يؤكّد حقيقة الشخصيّة المتميّزة لكلّ سورة، بل على عدم اختلاط آيات أيٍّ منها بالأخرى أيضاً، ثمّ إنّ هذا النظام من شأنه أن يؤكّد رأي من ذهبوا إلى أنّ ترتيب السوَر والآيات في القرآن الكريم كما هو الآن إنّما كان توقيفيّاً صادراً عن وحيٍ إلهيٍّ وليس عن مواضعاتٍ بشريّةٍ.

ولا بدّ من التنبيه هنا إلى أنّ المعنى القرآنيّ الجديد لا علاقة له بالفعل (كان) التامّ – عكس الناقص– فهذا من الأفعال المعروفة في القرآن الكريم وغيره، كقوله تعالى: ﴿كُن فَيَكُونُ﴾ أي: احصَل فيحصُل، والفرق واضحٌ بين معنى الحصول أو الحدوث وبين معنى إطلاق النفي أو إطلاق الإثبات ليشمل الأزمان الثلاثة.

٥– كُفُواً:

من اللافت للنظر ألاّ نجد هذا اللفظ، وهو شائعٌ جداً اليوم، في موسوعة الشعر الجاهليّ، إضافةً إلى أنّ هذه السورةَ القصيرة قد اختصّت بهذا اللفظ في القرآن فلا وجود له في أيّة سورةٍ أخرى.

ثمّ إنّ القرآن الكريم قد اختُصّ بهذا اللفظ دون الحديث الشريف، إلاّ أن يَرِد في سياقٍ قرآنيٍّ كما وقع في الحديث القدسيّ السابق.

ثانياً: الصيغ والعلاقات اللغويّة

كثيراً ما تتقارب الصيغ القرآنيّة، من تراكيب وتعبيرات، مع ما أسميناه بالسبائك القرآنيّة، تقارباً يصل أحياناً إلى حدّ التداخل الذي لا مهرب منه.

ولا بدّ من التأكيد على أنّ مقياسنا في محاولة الفصل بين النوعين، ما أمكننا ذلك، هو أن نُدخِل تحت الصيغ اللغويّة ما خالف فيه القرآنُ أعرافَ العرب النحويَّة واللغويّة والبيانيّة فيما لا يزيد عن عنصرٍ واحدٍ، بحيث لا يكون لهذا التغيير أيّ دورٍ في تغيير الوضع الإعرابيّ العام للجملة أو العبارة، وأن نُدخِل تحت السبائك ما خالفتْ به الجملةُ أو العبارة القرآنيّة البناءَ التقليديّ العامّ لترتيب أجزاء الجملة أو العبارةِ العربيّة بحيث تؤثّر هذه المخالفة في إعراب تلك الأجزاء، ويشمل هذا عادةً عنصرين لغويّين أو أكثر.

ونستعرض الآن ما في هذه السورة من صيغٍ وعلاقاتٍ لغويّةٍ جديدة:

١- هو اللهُ أحد:

لقد اختلفوا كثيراً حول إعراب هذه الألفاظ الثلاثة. ولا يهمّنا هنا أيّها المبتدأ وأيّها الخبر أو البدل، وحول ذلك يقع الاختلاف، بقدر ما يهمّنا مجيء الضمير (هو) في مطلع جملةٍ هي مقولٌ لقولٍ سبقها، أيّاً كان إعراب هذا الضمير.

إنه استعمالٌ قرآنيٌّ خاصٌّ يوقعنا، كما أوقع المختلفين قبلنا، بالحَيرة: فهل إعراب (هو): خبرٌ لمبتدأ محذوف، والتقدير: أتسألونني عن الله ونسبته وطبيعته؟ إذن فالجواب: الله هو..؟ أو إنّه ضمير شأنٍ مبتدأ وخبره لفظ الجلالة (الله)؟ أو لعلّ لفظ الجلالة بدلٌ منه، فيكون الخبرُ هو اللفظ (أحَد)؟ أو ربّما غير ذلك؟

وباستطاعتنا أن نتبيّن الفرق بين التعبير القرآنيّ والتعبير البشريّ لو حاولنا أن نضع هذا المعنى في الصياغة التي اعتدناها في لغتنا البشريّة، فكيف يكون شكلها؟ قد يكون شيئاً من هذا القبيل:

إنّ الله أحد (بل نقول بالأحرى: واحد) أو:

الله أحد، أو:

إنّه أحد، أو:

هو أحد،

ولكن لن يتوقّع أيّ منّا أن نقول:

هو الله أحد.

إنّ وجود (هو) في هذا الموقع، بين فعل القول والاسم الظاهر (الله)، يشير إلى خصوصيّةٍ لغويّةٍ لا نجدها في أيّ مكانٍ آخر من تراثنا اللغويّ غير القرآن الكريم.

٢- اللهُ الصمَد:

أتذكرون آيات سورة (الفاتحة) المبدوءة ببدلٍ: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ .. مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ .. صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِمۡ .. ﴾ وآيتَي سورة (الناس): ﴿مَلِكِ ٱلنَّاسِ ۝٢ إِلَٰهِ ٱلنَّاسِ ﴾؟ فهذه الآن آيةٌ أخرى تبدأ بلفظ الجلالة (الله)، وقد جاء بدلاً من لفظ الجلالة في الآية التي سبقتها، وهي ظاهرةٌ لغويّةٌ لم تكن معروفةً في العربيّة قبل القرآن، ولم تُعرف بعده حتّى الآن، ولم يعرفها الحديث الشريف.

٣- اللهُ الصمَد (مكرّر):

اعتدنا، إذا بدأت الجملة بمبتدأ معرّفٍ بـ "ال" -ولفظ الجلالة هو في حكم المعرّف بـ "ال"- وكان الخبر كذلك معرّفاً بـ "ال"، أن نفصل هذا المبتدأ عن خبره بفاصلٍ غالباً ما يكون ضميراً منفصلاً، فنقول:

الملكُ هو الحاكم، ولا نقول:

الملكُ الحاكم. ونقول:

الأتقياءُ هم الناجون، ولا نقول:

الأتقياءُ الناجون.

إنّها ليست قاعدةً نحويّة، فليس هناك قاعدةٌ تُلزمنا بذلك، ولكنّه عُرفٌ لغويٌّ سرى على تراثنا وخرج عنه القرآن الكريم في عديدٍ من آياته.

فإن حدث أن وقع مثل هذا في كلامنا فإنّما يكون في معرض الردّ على سؤال، كما فعل الرسول ﷺ حين ردّ على من سأله عن حكم الخلوة أو ظهور

الزوجة أمام إخوة الزوج فقال: "الحَمُو الموت"[1] أي هو الموت. وانظروا معي في هذه الآية:

- ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُتَّقُونَ ﴾ [البقرة: ١٧٧]

إنّها آيةٌ كريمةٌ أيضا، ولكنها انطلقت من العُرف اللغويّ، فلم تكن هناك حاجةٌ ملحّةٌ للضمير المنفصل في نصفها الأوّل، فقال: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ﴾ لأنّ المبتدأ لم يكن معرّفاً بال، كما أنّ الخبر جاء اسماً موصولاً (الذين)، ولكنّ الحاجة كانت أكثر إلحاحاً لمثل هذا الضمير في النصف الثاني من الآية، لأنّ الخبر جاء اسماً معرّفاً بال (المتّقون) وإن لم يكن المبتدأ كذلك، فقال: ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُتَّقُونَ ﴾.

٤- اللهُ أحَد. اللهُ الصمَد:

ومن الأعراف اللغويّة أيضاً، حين تتوالى جملٌ متوازيةٌ ومتناظرةٌ كهذه، يربطها عطفٌ أو إبدال، أن ينطبق التناظر على أركان الجملتين المتوازيتين، فتكون هذه الأركانُ في كلتا الجملتين مَعرفةً أو نكرة، أو مفرداً أو جمعاً، أو اسماً أو فعلاً، كما في الأحاديث:

- ..إلى مَن تكِلُني؟ إلى بعيدٍ يتجهّمني، أم إلى عدوٍّ ملّكته أمري..[2]
- ..فمن كان أخوه تحت يده فليُطعِمْهُ ممّا يأكل ولْيُلْبِسْه ممّا يلبَس[3]
- سِبابُ المسلمِ فُسوقٌ وقتالُه كفرٌ[4]

أرأيتم كيف عطف النكرة على النكرة في الحديث الأول (بعيد، عدوّ والنكرتين (ما) -أو المعرفتين لو عددناهما اسمَي موصول- إلى جانب الفعلين (فليطعمه، فليلبسه) في الثاني، والنكرتين في الثالث (فسوقٌ، كفرٌ)؟

---

(١) البخاري، **صحيح البخاري**، مرجع سابق، ج٥، ص٢٠٠٥، حديث رقم: ٤٩٣٤.

(٢) المعافري، عبد الملك بن هشام. **السيرة النبوية**، تحقيق: طه عبد الرؤوف سعد، بيروت: دار الجيل، ١٤١١هـ، ج٢، ص٢٦٨.

(٣) البخاري، **صحيح البخاري**، مرجع سابق، ج١، ص٢٠، حديث رقم: ٣٠.

(٤) المرجع السابق، ج١، ص٥٢، حديث رقم: ٤٨.

وواضحٌ أن الخروج عن العرف في الآيتين يتمثّل في مجيء الخبر نكرةً في الأولى (أحَد) ومعرفةً في الثانية (الصمد)، وهذا نوعٌ من أنواع الالتفات الفنّيّ في القرآن.

٥- لم يلِد:

لا أظنّكم سمعتم أحداً، أو قرأتم لأحدٍ يقول: فلانٌ وَلَدَ غلاماً، وإنما نقول: فلانٌ أنجب غلاماً، أو رُزق غلاماً، وفلانةٌ وَلَدَت، أو أنجبت غلاماً، والاستعمال القرآنيّ يخرق العرف اللغويّ حين يصف اللهَ تعالى بأنّه: لم يلد. وهو كذلك لفظٌ اختصّت بصياغته هذه السورة، فلا يرد في غيرها أبداً، وإن ورد في صيغة الماضي مرّتين في قوله تعالى:

- ﴿ أَلَآ إِنَّهُم مِّنْ إِفْكِهِمْ لَيَقُولُونَ ﴿١٥١﴾ وَلَدَ ٱللَّهُ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿١٥٢﴾ ﴾ [الصافّات: ١٧٢]
- ﴿ وَوَالِدٍ وَمَا وَلَدَ ﴾ [البلد: ٣]

ويستخدم القرآن الكريم عادةً، لأداء هذا المعنى، تعبيراً مكوّناً من لفظين اثنين: (اتخذ ولداً) كما في الآيات:

- ﴿ وَقَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا سُبْحَٰنَهُۥ ﴾ [البقرة: ١١٦]
- ﴿ وَيُنذِرَ ٱلَّذِينَ قَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا ﴾ [الكهف: ٤]
- ﴿ وَمَا يَنۢبَغِى لِلرَّحْمَٰنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا ﴾ [مريم: ٩٢]

والغريب أن اللفظ الذي نستخدمه اليوم للتعبير عن هذا المعنى، وهو (أنجب) لا يرد في القرآن مطلقاً، والأغرب من هذا ألاّ يرد في الحديث أيضاً، لا للمرأة ولا للرجل، وإنّما هو في الحديث (وَلَدت) للمرأة، كقوله ﷺ:

- ..وإذا وَلَدتِ المرأةُ ربَّتَها[1]

أمّا الرجل فلا يُسنَد إليه هذا الفعلُ في الحديث مطلقاً، ولا أيُّ فعلٍ آخر بمعناه، وإنما يكون: (ولَدَت منه أو له) كقوله ﷺ:

(١) البخاري، **صحيح البخاري**، مرجع سابق، ج٤، ص١٧٩٣، حديث رقم: ٤٤٩٩.

- أيُّما وليدةٍ ولَدَتْ مِن سيِّدها ..[1]
- ..ووَلَدَتْ له أولاداً ..[2]
- ..ووَلَدَتْ منه أولاداً ..[3]

وهذا ينطبق على القرآن الكريم أيضاً حين يتعلّق الأمر بالبشر، واقرأوا معي هذه الآيات:

- ﴿ فَإِن لَّمْ يَكُن لَّهُۥ وَلَدٌ وَوَرِثَهُۥٓ أَبَوَاهُ فَلِأُمِّهِ ٱلثُّلُثُ ﴾ [النساء: ١١]
- ﴿ إِنِ ٱمْرُؤٌا۟ هَلَكَ لَيْسَ لَهُۥ وَلَدٌ وَلَهُۥٓ أُخْتٌ فَلَهَا نِصْفُ مَا تَرَكَ ﴾ [النساء: ١٧٦]
- ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى وَهَبَ لِى عَلَى ٱلْكِبَرِ إِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ ﴾ [إبراهيم: ٣٩]
- ﴿ وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ﴾ [الأنعام: ٨٤]
- ﴿ وَوَهَبْنَا لِدَاوُۥدَ سُلَيْمَٰنَ ۚ نِعْمَ ٱلْعَبْدُ ۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴾ [ص: ٣٠]

ألاحظتم كيف خَلَت الآيات من أيّ فعلٍ يستقلّ وحده بمعنى الولادة أو الإنجاب؟

ويندر ورود الفعل (يلد) في الشعر الجاهليّ أيضاً، ولم أجده إلا في بيتٍ لابن عنقاء الفزاريّ (ت ٢ ق.هـ):

فإنّ تميماً قبل أن يلِدَ الحصى ... أقامَ زماناً وهو في الناسِ واحدُ

أي يلد أمثال الحصى عدداً.

أمّا الفعل (يُنجب) فقد استخدمه الشعراء عادةً للتعبير عن النجباء أو عن إنجاب النجباء، وليس لأيّ إنجابٍ عاديّ كما جرينا على استخدامه نحن اليوم. واقرأوا معي هذه الأبيات:

رأينا قروناً مِن جديلةَ أنجبوا ... وفحلُ بني نبهانَ غيرُ نجيبِ

قل للأخيطل لا عجوزُكَ أنجبتْ ... في الوالداتِ ولا أبوكَ فَحيلُ

جرير (ت ١١٠هـ)

---

(١) البيهقي، **سنن البيهقي الكبرى**، مرجع سابق، ج١٠، ص٣٤٢، حديث رقم: ٢١٥٥٢.

(٢) البخاري، **صحيح البخاري**، مرجع سابق، ج٦، ص٢٥٩٧، حديث رقم: ٦٦٧٦.

(٣) القزويني، **سنن ابن ماجه**، مرجع سابق، ج١، ص٦٣٤، حديث رقم: ١٩٧٤.

openkan.com

لقــد أنجَبَتْ آبــاؤه إذ أتت بـه وكم مِن نجيبٍ سيّدٍ ليس يُنجِبُ

التهامي (ت ٤١٦هـ)

وكم مُنجِبٍ في تلقّي الدروسِ تلقّــى الحيــاةَ فلــم يُنجِــبِ

شوقي (ت ١٩٣٢م)

هل تبيّنتم أنّ (الإنجاب) في الأبيات جميعها لم يكن مجرّد الولادة، وإنّما كان دائماً ولادة الفحول و (النُجباء) المتفوّقين من البشر.

٦- لم يلِد:

إنه وصفٌ آخر لله عزّ وجلّ يضاف إلى ما سبقه من أوصاف، ولكنْ حدث شيءٌ ما هنا انعطف معه تيّار الخطاب من مجرىً إلى آخر.

لقد كانت الصفات تتوالى في شكل أسماءٍ مفردة، أو جملٍ اسميّةٍ يمكن التأرجح في إعرابها بين الصفة والبدل والمبتدأ والخبر، ويمكن فهم كلماتها بأكثر من طريقة -كما وجدنا في (الصمد)- وهي سعةٌ في التأويل، إعراباً ومعنىً، تُناسب سعة الصفات الإلهيّة، وتترك المجال مفتوحاً للعقل وهو يسعى ليتخيّل طبيعة أوصافِ من لا يدركه وصفٌ ولا يحيط به عقل.

أمّا وقد وصل الحديث هنا إلى قضيّةٍ أخطر من أن تحتمل الاجتهاد أو التأويل: ﴿لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ﴾ -وهي ثغرةٌ سبق أن نفذ منها الخلل إلى دياناتٍ عدّة- فقد تَحوّل الحديث إلى صيغة الفعل. ومن طبيعة الفعل أنّه، على الأغلب، أكثر صرامةً ودقّةً وتحديداً من الاسم، وهو التفاتٌ قرآنيٌّ فريد، بين الأنواع الكثيرة الأخرى من الالتفات التي أوجدها القرآن لأوّل مرّة.

إنّنا الآن أمام وصفٍ آخر من صفات الذات الإلهيّة، ولكن في جملةٍ فعليّةٍ كاملة ﴿لَمْ يَلِدْ﴾ تليها جملةٌ فعليّةٌ أخرى ضمن الآية نفسها ﴿وَلَمْ يُولَدْ﴾: جملتان متتاليتان في آيةٍ قصيرةٍ واحدة، كلٌّ منهما تتكوّن من حرف نفيٍ وفعلٍ وفاعلٍ مستتر،

أو نائبِ فاعلٍ، فلا أسماء ولا صفات، ولا جملَ اسميّة، وإذن لا مجال للتردّد هنا أو للحيرة، لاً في إعراب الألفاظ ولا في تأويلها أو حرفها عن مسارها.

٧- لم، ولم، ولم:

سبق أن وقفنا عند ظاهرة اختتام آيات سورة (الناس) جميعاً بفاصلةٍ غريبةٍ هي الأحرف الأربعة (نّاس) التي تتكرّر في نهاية الآيات، ووقفنا عند الظاهرة الغريبة الأخرى في سورة (الفلق) حيث بدأت الآيات الأربع الأخيرة باللفظين (**من شرّ**) فكانت بمثابة قافيةٍ متقدّمة.

ونحن الآن أمام ظاهرةٍ أخرى مشابهة، إذ يبدأ كلٌّ من الآيات الأخيرة الثلاث بالأداة (لم) ثمّ لا يفصل بين الأدوات الثلاث إلاّ لفظٌ واحدٌ في كلّ مرّة.

ثالثاً: السبائك القرآنيّة

١- قل هو اللهُ أحد:

قبل أن أحاول توضيح "قرآنيّة" هذه السبيكة اللغويّة وإثبات تميّز بنائها اللغويّ عن بناء أيّة سبيكةٍ لغويةٍ أخرى، ألقوا معي نظرةً سريعةً على هذه الأبيات من الشعر الجاهليّ:

عليها فتىً لم تحملِ الأرضُ مثلَهُ ... أبَرَّ بميثـاقٍ وأوفى وأصبَرا
هو المُنزِلُ الآلافَ مِن جوِّ ناعطٍ ... بني أسَدٍ حَزْناً مِنَ الأرضِ أوعَرا

امرؤ القيس (ت ٨٠ ق.هـ)

رسا أصلُه تحت الثرى وسَما بهِ ... إلى النجمِ فَرعٌ لا يُنالُ طويـلُ
هو الأبلقُ الفردُ الذي شاعَ ذِكرُهُ ... يَعِزُّ على مَـن رامَـهُ ويطـــولُ

السموأل (ت ٦٤ ق.هـ)

هو الواهبُ المائةَ المُصطفاةَ ... تُجاوِبُ منها العِشارُ الفِصـالا

المسيّب بن مالك (ت ٤٨ ق.هـ)

إنّ خير طريقةٍ نميّز بها هذه السبيكة القرآنيّة عن السبائك الشعريّة التي قد تلتبس معها هي أن نحاول التمييز بين أحوال الضمير في كلٍّ من الطرفين.

ويكاد لا يختلف اثنان على أنّ الضمير (هو) في الأبيات السابقة جميعاً لا يعدو أن يكون (مبتدأً) عاديّاً، ولكن من يستطيع أن يصدر مثل هذا الحكم، وبمثل هذه الثقة، بخصوص هذا الضمير في الآية؟

لقد عرفنا كيف يميل بعض المفسّرين إلى أنّه (ضمير الشأن) وهذا النوع من الضمائر يمكن حذفه بسهولة عادةً، من غير أن يؤثّر حذفه على البناء الأساسيّ للجملة، فنقول مثلاً: الله أحدٌ، فهذه جملةٌ بسيطةٌ وكاملةٌ مؤلّفةٌ من مبتدأٍ وخبر، فإذا أعدناه إلى مكانه صحّ أن يكون مجرّد ضميرٍ شأنٍ له دورٌ بلاغيٌّ معيّن، ليس هنا موضع شرحه، كما صحّ أن يكون مبتدأً، ولفظُ الجلالة (الله) خبراً، أو بدلاً منه، وأن يكون اللفظ (أحد) خبراً أو بدلاً من لفظ الجلالة.

أمّا الأبيات فلا يمكن حذف الضمير (هو) في أيّ منها، فإن فعلنا كان علينا إعادته إلى مكانه ولو تقديراً، فلو قلنا: المُنزِلُ الآلافَ، فنحن نعني: هو المُنزِلُ الآلافَ، لأنّ اللفظ (المُنزل) خبرٌ يجب أن نبحث له عن مبتدأ وإلاّ كانت الجملة مبتورة. وهذا شأننا مع جملة (هو الأبلق الفرد) وجملة (هو الواهب المائة).

ومن الواضح أنّ الأمر في الآية مختلفٌ تماماً؛ إذ لا نحتاج هناك، لو حذفنا الضمير، إلى مثل هذه التقديرات.

ورغم ورود التركيب ﴿هُوَ ٱللَّهُ﴾ عدّة مرّاتٍ في القرآن، يبقى التركيب هنا متميّزاً عن الحالات الأخرى بالفعل (قل) الذي سبقه، ثم بالخبر –أو البدل– الذي تبعه: (أحَد)، إذ لا يتوفّر هذان الشرطان معاً في الآيات الأخرى، ولا في الشعر الجاهليّ طبعاً، فإن توفّر فيها أحدهما افتقدنا الآخر، كما في قوله تعالى:

- ﴿ وَهُوَ ٱللَّهُ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَفِي ٱلۡأَرۡضِۖ ﴾ [الأنعام: ٣]
- ﴿ وَهُوَ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ لَهُ ٱلۡحَمۡدُ ﴾ [القصص: ٧٠]

- ﴿ هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ۖ ﴾ [الحشر: ٢٢]
- ﴿ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْخَٰلِقُ ٱلْبَارِئُ ٱلْمُصَوِّرُ ۖ ﴾ [الحشر: ٢٤]
- ﴿ لَّٰكِنَّا۠ هُوَ ٱللَّهُ رَبِّى وَلَآ أُشْرِكُ بِرَبِّىٓ أَحَدًا ﴾ [الكهف: ٣٨]

٢- لم يلِد ولم يُولَد:

اجتماع هذين الفعلين في عبارةٍ واحدةٍ تقليدٌ لغويٌّ جديدٌ أدخله القرآن إلى العربيّة؛ إذ لا وجود للفعلين مجتمعَين في الشعر الجاهليّ، إلى جانب أنّ اجتماعهما في القرآن الكريم يقتصر على سورة (الإخلاص) وحدها.

وسرعان ما يقتنص الشعراء العرب، بعد نزول القرآن، هذا النمط اللغويّ الجديد، فيروّضونه لأوزان الشعر، مقدّمين في ألفاظه ومؤخّرين، ليخرجوا بمثل هذه الأبيات:

تمنّتِ الأزدُ إذ غبَّت أمورُهمُ ... أنّ المهلَّبَ لم يولَدْ ولم يَلِدِ
ذو الرُّمّة (ت ١١٧هـ)

الحمدُ للهِ الواحدِ الصمـدِ ... هو الذي لم يولدْ ولم يلِدِ
أبو العتاهية (ت ٢١١هـ)

فإذا عزمتَ على مَساءتِهمْ ... فاجهَـرْ بلـــم يولَدْ ولـــم يلِدِ
البحتريّ (ت ٢٨٤هـ)

٣- لم يكنْ له كفُواً أحد:

التقديم والتأخير في هذه الآية ليس أمراً عاديّاً، إذ تقدّم الخبر (كفواً) على الاسم (أحدٌ) ثمّ تقدّمت صفة الخبر (له) على الخبر نفسه.

ولو كان علينا إعادة ترتيب ألفاظ هذه الآية، وتقدير ما حُذف منها، لأصبحت على الشكل التالي: لم يكن أحدٌ كُفؤاً كائناً له، فيُعرَب (أحدٌ) اسماً للفعل الناقص

(يكن) و (كُفؤاً) خبراً له، و(كائناً) صفةً لـ (كُفؤاً) -طبعاً ستتحوّل هذه الصفة، تبعاً للقاعدة النحويّة المعروفة، إلى حالٍ لأنّ الصفة تقدّمت على الموصوف (وهو الضمير في: له)- فيكون التقدير: لم يكن كائناً له كفواً أحد[1]. وحاوِلوا صياغة جملةٍ بشريّةٍ موازيةٍ لهذه السبيكة، كقولنا:

ولم يكن عليه قادراً أحدٌ

فلن تحصلوا بهذه الصياغة البشريّة إلاّ على عبارةٍ كتلك العبارات المثيرة للسخريّة التي حاول بعضهم التطاول لتقليد لغة القرآن بها.

إنّ هذا (التقديم والتأخير) المزدوج، رغم استحالة التأكّد من عدم وجود مثيلٍ له في الشعر الجاهليّ بالإمكانات البحثيّة المتاحة حاليّاً، يبقى أمراً لافتاً للنظر وبعيداً، على أيّة حال، عن لغتنا اليوميّة العاديّة.

ومن السهل إدراك خصوصيّة ذلك لو قارنّا هذه الآية بالآية القرآنيّة ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ فقد تقدّم الخبر (كمثله) هنا على الاسم (شيء) ولكن لم يتقدّم على الخبر أيّ شيء آخر، من صفةٍ أو حال، كما وقع في هذه السورة.

رابعاً: مواقع منفتحة

رغم أنّ الشعر هو المكان الذي نبحث فيه عادةً عن الألفاظ أو التعبيرات المشعّة، وهي التي تحمل أكثر من معنىً وتؤوّل بأكثر من وجه، فإنّنا نفتقد مثل هذا النوع من الألفاظ أو العبارات في الشعر الجاهليّ، كما قدّمنا في التمهيد لهذه الدراسة في الجزء الأول.

ولكنّ القرآن الكريم يتجاوز الشعر واللغة الأدبيّة لذلك العصر بلغةٍ مشحونةٍ بالألفاظ الموحية والعلاقات الغنيّة بطيوفها وألوانها، بحيث يستجيب

(١) أوضحنا سابقاً أنّ حرف الجرّ أو الظرف يحتاجان إلى حدثٍ يتعلّقان به، أو بتعبيرٍ آخر: يحدث فيهما، ولهذا كان علينا إيجاد اللفظ "كائناً" لأنّ اللفظ "كُفؤاً" اسمٌ لا يحمل معنى الحدث.

obeikan.com

هذا النوع من الألفاظ والتعبيرات إلى تقلّب العصور وتجدّد الأحداث وتطوّر الفكر البشريّ عبر القرون، فيأخذ كلٌّ ما يعنيه، ويجد فيها ما يفهمه ويناسب عصره ومَصره وفكره وثقافته.

و نجد في السورة من هذا اللون المشعّ من الألفاظ والتعبيرات ثلاثةً على الأقلّ:

١- قل:

هذا لفظٌ منفتحٌ بإطلاق الخطاب فيه، فلا ينحصر في شخصٍ أو فئةٍ محدّدة، كما أوضحنا في السورتين السابقتين.

٢- هو اللهُ أَحَد:

هذه حالةٌ شديدة الخصوصيّة بين حالات اللغة المنفتحة توشك ألاّ تدخل في هذا الباب، إذ تتعدّد حالاتها الإعرابيّة، وهذا من أهمّ الأسس التي تقوم عليها اللغة المنفتحة، ومع ذلك فليس لها إلاّ معنىً واحدٌ لا ثاني له: الله واحد.

إنّ المواقع الإعرابيّة لألفاظها متداخلة، فهي بذلك محتمِلةٌ لأكثر من وجهٍ إعرابيّ، كما رأينا، ومن ثمّ فهي مفتوحةٌ على أكثر من احتمالٍ حول أيٍّ من الأجزاء يتمّ التركيز عليه في المعنى: هو، أم: الله، أم: أحد؟ ولكنّها في النهاية، خلافاً لكلّ ما عرفناه من مواقع لغويّةٍ منفتحة، لا تحتمل أكثر من معنىً واحدٍ تلتقي عنده هذه الأجزاء اللغويّة، وهو وحدانيّة الله سبحانه وتعالى.

٣- الصمَد:

في هذا اللفظ من الغنى والظلال ما يستجيب معه لأكثر من صفةٍ واحدةٍ من صفات الله تعالى كما سبق أن تبيّنّا.

خامساً: جوامع الكلِم

١ إلى ٣:

لا شكّ أنّ كلاً من العبارات الثلاث: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ - لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ - وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ﴾ قد غدا ركناً لغويّاً في أيّ حديثٍ عن العقيدة أو التوحيد، فهذه العبارات تلخّص خير تلخيص، وبشكلٍ لغويٍّ بسيط، جوهر العقيدة الإسلامية ودعوتها التوحيديّة، وأهمَّ الصفات التي تلخّص طبيعة الذات الإلهيّة، ممّا يجعلها تتردّد على ألسنتنا باستمرار، كما تردّدت من قبل على ألسنة المسلمين الأوائل، في سياقاتٍ ومناسباتٍ دينيّةٍ وفكريّةٍ مختلفة.

٤ - السورة بكاملها:

لقد أصبح للسور الثلاث (الإخلاص والفلق والناس) مكانةٌ متميّزةٌ عند المسلمين، وتوحّد بينها الأحاديثُ النبويّة التي تدعوهم إلى ترديد هذا الثلاثيّ في أكثر من وقتٍ وأكثر من جزئيّةٍ من جزئيّات حياتهم اليوميّة، كما رأينا في السورتين السابقتين، وكما تؤكّد أحاديث أخرى للرسول ﷺ أُفردت لهذه السّورة:

- عن أبي سعيدٍ الخُدْريّ ﷺ قال: قال النبيّ ﷺ: أيَعجَزُ أحدُكم أن يقرأ ثُلُثَ القرآنِ في ليلة؟ فشَقّ ذلك عليهم وقالوا: أيُّنا يُطيقُ ذلك يا رسولَ الله؟ فقال: (اللهُ الواحدُ الصمَد) ثُلُثُ القرآن[١]

- عن أبي سعيدٍ الخُدرْيّ ﷺ قال: إنّ رجلاً سمع رجلاً يقرأ ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ يردّدها، فلمّا أصبح جاء إلى رسولِ الله ﷺ فذكر ذلك له، وكأنّ الرجلَ يَتقالُّها، فقال رسولُ اللهِ ﷺ: والذي نفْسي بيدِه إنّها لَتَعْدِلُ ثُلُثَ القرآن[٢]

---

(١) البخاري، **صحيح البخاري**، مرجع سابق، ج٤، ص١٩١٦، حديث رقم: ٤٧٢٧.

(٢) المرجع السابق، ج٤، ص١٩١٥، حديث رقم: ٤٧٢٦.

obeikan.com

- عن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسولُ الله ﷺ: اُحشُدوا -أي اجتمِعوا- فإنّي سأقرأُ عليكم ثُلُثَ القرآن، فحَشَد مَن حَشَد، ثمّ خرج النبيُّ ﷺ فقرأ ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ ثمّ دخل، فقال بعضُنا لبعضٍ: إنّي أُرى -أي أعتقد-: هذا خبرٌ جاءه من السماء فذاكَ الذي أدخَلَه (أي شغله نزولُ الوحي فجأةً عن إتمام قراءة ثُلُثِ القرآن علينا كما وعد). ثمّ خرج نبيُّ اللهِ ﷺ فقال: إنّي قُلتُ لكم سأقرأُ عليكم ثُلُثَ القرآن، ألا إنّها تَعْدِلُ ثُلُثَ القرآن[1]

(١) القشيري، **صحيح مسلم**، مرجع سابق، ج١، ص٥٥٧، حديث رقم: ٨١٢.

opeikan.com